نشأة النقد الروائي الغربي

1- مفهوم الرواية :

تعد الرواية من أهم الأجناس الأدبية التي حاولت تصوير الذات والواقع وتشخيص ذاتها، إما بطريقة مباشرة وإما بطريقة غير مباشرة قائمة على التماثل والانعكاس غير الآلي. كما أنها استوعبت جميع الخطابات واللغات والأساليب والمنظورات والأنواع والأجناس الأدبية والفنية الصغرى والكبرى، إلى أن صارت الرواية جنسا أدبيا منفتحا وغير مكتمل، وقابلا لاستيعاب كل المواضيع و الأشكال والأبنية الجمالية. إذاً، ماهي أهم النظريات النقدية والفلسفية التي تم تصورها حول نشأة الرواية؟

2- نشأة الرواية:

كانت الرواية في أوروبا جنسا أدبيا مغمورا ومهمشا وخطابا سرديا منحطا لا قيمة له ، يقبل عليه الشباب من أجل الاستمتاع والترفيه، بعيدا عن حياة الجد والصرامة التي كانت تفرضها الأسر الأوربية على أولادها؛ حيث كانت تحذرهم من قراءة الروايات، ناهيك عن موقف الكنيسة المعروف من كل ماهو مدنس وسفلي .لأن الرواية ارتبطت باللهو والمجون والغرام والتسلية والفكاهة، بالمقارنة مع الأجناس الأدبية السامية والنبيلة كالشعر والملحمة والدراما. و قد ساد هذا التصور السلبي إلى غاية القرن الثامن عشر. بيد أن الرواية ستنتعش في القرن التاسع عشر، وتصبح الشكل الأدبي الوحيد القادر على استكناه الذات والواقع واستقراء المجتمع والتاريخ بصدق موضوعي موثق وتخييل فني يوهم بالواقع، مع كوكبة من الروائيين الكبار، كبلزاك، وزولا، وفلوبير، وتولوستوي و دو يستفسكي... ومن ثم، فقد عدت الرواية عند منظريها ملحمة بورجوازية،

واعتبرت أيضا أداة للصراع الاجتماعي ضد قوى الإقطاع والاستغلال والقهر وقد تحولت كذلك إلى سلاح شعبي خطير لمناهضة الظلم والاستبداد ، وإدانة الواقع المتردي و تسفيه قيمه المنحطة، والتغني بالقيم الأصيلة، ومناشدة واقع إنساني مثالي أفضل تعم فيه السعادة والعدالة والفضيلة والحرية والحب، حيث يعيش فيه الجميع بسلام وأمان.

أما عصرنا الحديث، فقد أصبح عصر الرواية بامتياز؛ لأن الرواية كانت وما تزال الجنس الأدبي الأكثر انفتاحا على التقاط مشاكل الذات والواقع، والقادرة كذلك على استيعاب جميع الأجناس والأنواع والخطابات الأخرى، كما أنها الجنس الأدبي المهيمن والمفضل لدى الكثير من القراء والمثقفين بالمقارنة مع الشعر والمسرح.

3- نظريات الرواية في المنظور الغربي :

ثمة مجموعة من النظريات الأدبية والنقدية الغربية التي حاولت تفسير نشأة الرواية، فهناك من اختار المقاربة الفلسفية (هيجل ...)، وهناك من استعان بالمقاربة التاريخية (جورج لو كاش)، وهناك من فضل المقاربة السوسيولوجية)لوسيان غولدمان...)، وهناك من ارتضى المقاربة الأسلوبية (ميخائيل باختين...)، وهناك من اعتمد على المقاربة السيميائية الدينامية (فلاديمير كريز نسكي)، وهناك من فضل المقاربة النفسية (فرويد – مارت روبير....

فردريك هيجل:

يعد الفيلسوف الألماني هيجل أول من قدم نظرية للرواية في الغرب من خلال رؤية فلسفية جمالية مثالية مطلقة. ويذهب هيجل إلى وجود قرابة كبيرة بين الرواية والملحمة، إلا أن الفن الملحمي باعتباره شعرا لم يزدهر إلا إبان الفترة اليونانية. ومن ثم، يعبر هذا الفن عن تلاحم الذات والموضوع في إطار انسجام متكامل ومتناغم يعبر عن شعرية القلب والتآلف والسعادة المطلقة. أما الفن الثاني، فهو الفن الروائي الذي يتخذ السرد النثري وسيلة للتعبير عن انفصال الذات والواقع، أو تشخيص الهوة التراجيدية الموجودة بين الأنا والعالم . وبالتالي يؤكد هيجل مدى نثرية العلاقات الإنسانية في المجتمع الحديث، فيشير إلى وجود قطيعة فينومونولوجية بين الذات والموضوع و بين الإنسان والواقع .ويعني هذا أن الرواية هي في الحقيقة تشخيص للوحدة المفقودة بين الذات والموضوع ونشدان التكامل المأمول بينهما، واستشراف للسعادة الكلية المطلقة المعهودة في الملحمة اليونانية. وقد أقر هيجل بأن الرواية ملحمة بورجوازية أو ملحمة عالم بدون آلهة، أفرزتها تناقضات المجتمع الرأسمالي، ويبدو من

خلال ما كتبه هيجل أنه يفضل الملحمة على الرواية، والشعر على النثر، والقلب على الواقع.

جورج لوكاش

انطلق الباحث المجري جورج لوكاش من تصورات أستاذه هيجل، لكن ليس من منطلق مثالي بل اعتمد في تصوراته على المادية الجدلية الماركسية في فهم المجتمع الرأسمالي، وتفسير تناقضاته الكمية والكيفية. ولقد ألح على غرار هيجل على القرابة الموجودة بين الملحمة والرواية ، واعتبر الرواية ملحمة بورجوازية تراجيدية يتصارع فيها البطل مع الواقع، وذلك بأشكال مختلفة، نتج عنها ما يسمى بالبطل الإشكالي الذي يتردد بين الذات والواقع من أجل تثبيت القيم الأصيلة التي يؤمن بها.

بيد أن البديل الذي يقترحه لو كاش موجود في روايات تولستوي الروسي الذي يقدم بطلا إيجابيا ملحميا على غرار الملحمة اليونانية؛ إذ كان " تولوستوي حسب لوكاش هو المؤهل لخلق هذا الشكل من الرواية. مانحا إياه أعظم سورة لتجاوز ذاته نحو الملحمة. إن فن تولستوي عظيم وملحمي بصورة واقعية بعيد جدا عن الجنس الروائي، وهو يسعى، بوصفه كذلك، نحو تمثيل حياة مؤسسة على تشارك المشاعر بين البشر البسطاء المرتبطين ارتباطا حميما بالطبيعة هذا التشارك الذي يتلاءم مع إيقاع الطبيعة الكبير، ويتحرك وفقا لحركتها المضبوطة بالولادة والموت، والذي يقصي كل ما يكون في الأشكال الغريبة عن الطبيعة من صغار، وانفصال، وتفسخ، وتصلب"".

ومن المعلوم أن لو كاش يرجع بدايات الرواية إلى ظهور المجتمع الرأسمالي، من خلال استحضار شواهد نصية عاصرت تلك الفترة، كظهور رواية: " دون كيشوت " لسيريفانتيس، وروايات الكاتب الفرنسي الساخر رابلي .(RABELAIS) و أثبت أن الروائيين قد ناضلوا نضالا مريرا ضد استعباد الإنسان في القرون الوسطى. ومن ثم، تمثل الروحية الفردية عندهم المثل الأعلى، والنبراس الحقيقي الذي ينبغي الاستهداء بها. وقد خاضوا صراعين: الأول ضد عبودية الإنسان في المجتمع الإقطاعي والثاني ضد تدهور الإنسان في المجتمع الجديد. أما الأسلوب فقد اتسم بالفانتازيا الواقعية، كما احتفظت الرواية بالحقيقة الاجتماعية.

ويبدو لنا، من خلال الطرح اللوكاشي، أن الرواية الغربية أصلها بورجوازي سام، ويعني هذا أن الطبقة البورجوازية هي التي اتخذت الرواية أداة للتعبير والنضال، وذلك في صراعها مع الطبقات المناوئة، ولاسيما طبقة الإقطاع ورجال الكنيسة والطبقة البروليتارية ومن ثم فالرواية كانت تتغنى بالتاريخ وتمجد مجموعة من القيم كالحرية، والملكية الخاصة، والبطولة الفردية.

هذا، وقد أكد جورج لو كاش جدلية الرواية، عندما اعتبرها شكلا توفيقيا يجمع بين خصائص الملحمة والتراجيديا . أي: إذا كانت الملحمة تعبر عن الوحدة الكلية بين الذات والموضوع أو بين الأنا والعالم، وكانت التراجيديا تعبر عن القطيعة بين الذات والموضوع، فإن الرواية تتميز بطابع الوحدة والقطيعة؛ لأنها تجمع بين ماهو ملحمي وماهو تراجيدي ومن ثم تصبح الرواية شكلا ذا طابع جدلي قائم على الصراع والتغير والدينامية والنفي والتجاوز.

هذا، ون اهتمامات لو كاش بالأخلاق، وحلمه بالمطلق، والشمولية، والانسجام بين الأخلاق وعلم الجمال، ساعد على خلق عالم خيالي مثالي وطوباوي، حينما فضل الملحمة على باقي الأجناس الأدبية الأخرى. لأنه كان يعتقد أن الملحمة اليونانية إنما كانت تترجم الوحدة بين الذات والموضوع، واكتمال اللحمة بينهما في عالم منسجم، يخلو من الصراع الواقعي النثري، ناهيك عن عدم ظهور الآفاق التي يمكن للوكاش أن يحقق فيها مختلف مفهوماته للمطلق، مع رفضه لقيم العالم البورجوازي المتدهورة" .

ويرى الباحث الجزائري محمد ساري أن: " الرفض الرأسمالي للرأسمالية، والبعد الصوفي الديني الذي اكتشفه لو كاش في مؤلفات دويستفسكي، ساعدته على

إصباغ المرحلة الهوميرية بالعصر الذهبي ... من ثم اكتشف الانسجام الكلي بين الفرد والمجتمع في الملحمة" .

هذا، وقد ذكر جورج لوكاش في كتابه : (نظرية الرواية ثلاثة أنماط روائية حسب بطلها الإشكالي الذي يتردد بين الذات والواقع، وذلك في إطار مقاربة تاريخية جدلية، وهي:

أولا – رواية المثالية المجردة بطلها مثالي ساذج، حيث يبدو فيها الواقع أكبر من الذات، ويمثلها سيرفانتيس في روايته : "دونكيشوت."

ثانيا –الرواية السيكولوجية أو رومانسية الأوهام بطلها رومانسي ينطوي على ذاته، ويتجاوز الواقع المتردي. وبالتالي، فالذات تبدو أكبر من الواقع على مستوى المعرفة والمعايشة، وخير من يمثل هذه المرحلة الروائية فلوبير في روايته" :التربية العاطفية."

ثالثا الرواية التعليمية أو الرواية التربوية بطلها متصالح مع الواقع، ومتكيف مع الموضوع، وهنا تتساوى الذات مع الواقع، وتمثلها رواية: "سنوات تعلم فلهلم مايستر" لجوته.

لوسيان گولدمان

تعتبر الرواية عند لوسيان كولدمان عبارة عن : " قصة بحث عن قيم أصيلة في عالم منحط يقوم به فرد منحط " . والقيم الأصيلة – هنا لم تعد تلك الكلمة الخلقية العامة، وإنما تعني عند كولدمان قيم الاستعمال التي تحترم الشيء لذاته، في مقابل القيم المنحطة. أي: قيم التبادل التي لا تقدر الشيء إلا بما يساويه من مال. وهذه القيم هي التي يقوم عليها المجتمع الرأسمالي حيث قانون السوق والعرض والطلب. ويقوم المال المقترن بالقيم التبادلية بالدور الرئيس و الوسيط بين الإنسان والسلع، بل بين الإنسان ونفسه؛ مما يؤدي ذلك إلى الاغتراب والتشيؤ والاستلاب.

هذا، وينطلق لوسيان كولدمان في دراسته السوسيولوجية للرواية من تصور بنيوي تكويني في مقاربة الرواية الغربية التي أفرزتها البورجوازية الأوربية، مستفيدا في ذلك من تصورات هيجل و ماركس ولو كاش و فرويد، وجان بياجيه. وقد حاول دراسة مسيرة هذه الرواية فهما وتفسيرا من خلال مفاهيم أساسية وهي : التشيؤ، والبطل الإشكالي، والوساطة والتماثل والبنية الدالة، والرؤية للعالم، ونمط الوعي... فاستخلص بأن الرواية الفردية (البيوغرافية) في القرن التاسع عشر كانت تعبيرا عن الرأسمالية الفردية. أما في بداية القرن العشرين، فقد كانت الرواية المنولوجية أو رواية تيار الوعي تجسيدا لرأسمالية الشركات. أما الرواية الجديدة مع نتالي ساروت و كلود سيمون وآلان روب گرييه، وجان ريكاردو، وميشيل بوتور ... فقد كانت تعبيرا عن المجتمع التقني الآلي.

ميخائيل باختين

إذا كانت الرواية ملحمة بورجوازية، وتعد كذلك النوع الأدبي النموذجي الذي يعبر عن نشرية المجتمع البورجوازي الفردي، كما يرى كل من هيجل، ولو كاش و كولدمان، فإن الرواية عند المنظر الروسي ميخائيل باختين أدب شعبي، و جنس سفلي ومتخلل genre)) intercalaireنابع من الأجناس الأدبية الدنيا. وهي كذلك تعبير عن الأوساط الشعبية والفئات البروليتارية الكادحة. ويرى في الوقت نفسه، أن الرواية هي : " التنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا. أي: إن الرواية تستند إلى تعدد الملفوظات الحوارية والتناصية."

و يعني هذا أن ميخائيل باختين يفضل الرواية على الملحمة؛ كما يظهر ذلك بشكل جلي في تعدد لغاتها ولهجاتها وأساليبها، واختلاف مواقفها ومنظوراتها الإيديولوجية، وتميزها بشكل من الأشكال عن فن الشعر الذي يستند إلى منولوجية رتيبة؛ لوجود أحادية الإيقاع والأسلوب والتخاطب.